الفصل الرابع

القاهرة.. الطابع البلدى

بالقاهرة ثلاث صحف يومية - الأهرام[1] والأخبار والجمهورية - تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ورسامو الكاريكاتور فيها إذا تمثلوا القاهرى القح جعلوه عادة رجلا نحيلا قصيرًا مخلوع العذار،ذرب اللسان، قد يلبس نظارة، ويخب فى جلباب فضفاض من قماش قطنى مخطط وينتعل خفًا من الجلد، وعلى رأسه عمامة مشوشة - أو طاقية قطنية بيضاء، فالطربوش

(١) جريدة الأهرام هى أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقلا وقد هاجرا من لبنان فى سنة ١٨٧٥. وقد صدر قانون فى سنة ١٩٦٠ ألغى الملكية الخاصة للصحف.

الأحمر - وكان قد استحدثه الأتراك اقتباسًا من شمال أفريقية - قد اختفى لاعتباره رمزًا للتخلف، فلا يتسبث به الآن إلا السياح الأجانب وخدم المطاعم من أهل النوبة، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذى انتقل إليه الأتراك فيما بعد «البيريه» التى فرضها أتاتورك على شعبه، وهى غطاء من القماش للرأس ينتهى برفرف أمامى، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا، لم تأخذ بها القاهرة تقليدًا للأتراك، فأغلب رجال العاصمة، وكل نسائها بصفة عامة يسيرون برءوس عارية.

والصفة التى تطلق على القاهرى كما يتخيله رسامو الكاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هى صفة «البلدى» وهى فى اللغة نسبة إلى «بلد» وكلمة بلدى تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الأحياء التى تعيش فيها هذه التقاليد. والمصرى بجلابيته المخططة وصوته الأجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير عن نفسه بالصوت والإشارة، قد يبدو فى نظر السائح

الأجنبى الهياب شخصًا متنافرًا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة، بل قد يبدو شخصًا يثير التوجس، أما الذين يكلفون أنفسهم عناء مقابلته «وهو سهل المنال فى دكانه الصغيرة أو فى مقهاه المألوفة» يجدون ابن البلد هذا - ملح الأرض - شخصًا يتصف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس، فإن كان شيخًا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوفه. إن أساس نمط معيشتهم قد رسخ فى أقدم أحياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة فوق طبقة، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق أكوام النفايات..

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة وأشدهم دقة هو إدوارد لين صاحب الأثر المعروف «العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين» وصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير مأهولة، ففى سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد، ما يترتب على نمو السكان من اختزال إلى أصغر فأصغر

للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الرطيبة، مما أدى إلى تزاحم المساكن واختفاء العناية بها. وحين نشر لين بول وصفه للقاهرة بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال فى الاستطاعة التحدث بإفاضة عن الأحياء القديمة على النحو التالى:

«بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك فى هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور، هنا تحس أن المعمار المصرى قد وفق أبدع توفيق فى الوفاء باحتياجات العيش تحت سماء الشرق، فإنه جعل الشوارع ضيقة يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لأن الشمس تصب شواظها، فلو كانت الشوارع فسيحة كما هو الحال فى مدن أوربا لأصبحت لا تطاق. وإن جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع إحاطتها بأفنية خلاء مزروعة بساتين وحدائق، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات فى الصيف غير محتملة، وفن المعمار المصرى كان يقتضيه أن يبنى لك بيتاً لا تطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من

خلال نوافذك، فكان الأسلوب البديهى لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلى عالى الأسوار. وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب أن يتبينه. وهذه المشربيات - أو قل هذه الستائر الخشبية - وكذلك هذه الأفنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضى بحجاب النساء».

وما بقى الآن من بيوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف - مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون، تولى ضابط بريطانى الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم بـ «متحف جاير أندرسون». وفى القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكى: بيت جمال الدين الذهبى وبيت الشيخ السحيمى، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة الحديثة - ذلك أن حجاب النساء قد سقط لزومه فى حياة المصريين اليوم. ويرجع بعض الفضل فى هذا التحول إلى

نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الأزهر الذى توفى فى السنة السابقة لنشر الكتاب الذى نقلت عنه. وكان من نتيجة شيوع هذه الأفكار، مع تفسير جديد للدين الإسلامى يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح الآف من النساء يعملن مع الرجال جنبًا إلى جنب لا فى دور العلم فحسب بل فى المصانع والمكاتب الحكومية، وهناك فى الأزهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة..

وساير نزعة التجديد فى الفكر الإسلامى نمو مطرد خلال قرن لنظام علمانى للتعليم، فى قمته جامعتان فى القاهرة، تقوم بجانبهما أيضًا جامعة أمريكية. وأغلب الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية، وبعضهم يولى ظهره للدين..

دع عنك هذا التحول الفكرى، فإن تزاحم البشر فى القاهرة يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً، ولم يعرف الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن فى العمل بالحقول. إن نظام

الحجاب كان شرفًا مقصورًا على المدن. وكل مبالغة تقصر عن وصف ازدحام الأجساد فى القاهرة - أكبر مدن أفريقية - لا لأن أهلها يتكاثر نسلهم جيلًا بعد جيل فحسب، بل لأنها كالعهد بكل العواصم بمثابة الإسفنجة، تمتص مئات الألوف من المهاجرين من أبناء الريف، وترتب على ذلك أن كل قطار قادم من الشمال أو الجنوب يصب فى القاهرة مزيدًا من السكان. كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٣٧٤,٨٣٨، وتضاعف هذا العدد عشر مرات فى سنة ١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضى سنة على نشر هذا الكتاب.

والقاهرة القديمة.. أى هذه الرقعة التى لا يتجاوزها صوت المؤذن فى مساجد حى القلعة، لم تعد المركز الذى يتكشف عنده هذا النمط التقليدى لحياة أولاد البلد، فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد على قصرًا صيفيًا له، وكانت الكتب المعدة للسائحين إلى سنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا إذا أرادوا الركوب فى الأمسيات للتنزه فى الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه. أما اليوم فإذا أردت

أن تشاهد الريف فعليك أن تمضى إلى جهة أخرى: غربًا إلى الأهرامات أو جنوبًا إلى حلوان، لأن شبرا ذاتها أصبحت أشد زحامًا من إيست هام وهارلم أشد أحياء لندن ونيويورك زحامًا، واحتل نظام المعيشة البلدية مئات من شوارعها. وإذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه فى الريف فإنها مع ذلك تستحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة «سانت تريزا» وهى إحدى المزارات العجيبة الموجودة فى العالم، أخذ فى إنشائها فى العقد الثانى من هذا القرن طائفة من الكارميليت تجمع بين الانجليز والأيرلنديين، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب إليه جموعًا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، والكنيسة القائمة اليوم هى مزار للأمهات المصريات، يدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجى يضم رسمًا للقديسة وجدران مدخل الكنيسة منقوش عليها نذور بأكثر من اثنى عشر لغة من بينها نذر لرئيس وزراء سابق فى مصر.

و«العباسية» حتى كذلك من الأحياء السكنية التى اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على

الأراضى البراح الممتدة إلى هليوبوليس والمطار فقصر حبيب سكاكينى، وهو أعجوبة بطرازه القوطى وبأعمدته على هيئة فتيات من ذوات الأجسام البضة وبأطره الجدرانية المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحرفين الأولين لاسم صاحبه الليفانتى ولقبه، كان فى الأصل معدًّا لإقامة خلوية، فأصبح الآن تلتقى عنده دروب عديدة لحى سكانى مزدحم إلى درجة الاختناق. وحتى فى هليوبوليس «مصر الجديدة» تمتلئ الشوارع الخلفية بمنازل على غرار منازل الأحياء السكنية فى القاهرة القديمة، ولكنها تستوعب أجهزة الترانزستور والغسالات الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفًا منزوعة من نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك، وتلعلع أجهزة الراديو من المقاهى، ويسير الناس فى الشوارع مرتدين البيجامات وتعرقل ٤٠ ألف سيارة حركة المرور، ويندفع رجال الشرطة بزيهم الأسود شتاء الأبيض صيفًا فى نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البال أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هذا كله إلى تكشير بالأنياب سرعان ما ينقلب إلى تبادل

السلامات. وهنا طرح كبير للأطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخلاط متباينة ولهم ضجة عالية، إنهم لا يزالون فى رهبة من آبائهم، كثير منهم يميل إلى الشر وبعضهم إلى الانحراف، ولهؤلاء ملاجئ إصلاحية يدخلونها إن أمكن القبض عليهم فهم خفاف فى الجرى والقفز، ومع ذلك فلا تدل الإحصاءات على تفشى هذا النوع من الإجرام المعدوم الهدف الذى هو فى بعض الأحيان طابع المجتمعات الأكثر رخاء.

والأحياء البلدية فى القاهرة جديرة بالزيارة فى جولة استكشافية فهى بقايا لا تزال حية لمسرح ألف ليلة وليلة، وإذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصى العظيم عند العرب قد وقع فى بغداد فإن المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو فى ألف ليلة وليلة باقية إلى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الأحياء البلدية هو أن تسعى إليها مشيًا على القدمين، وستكون آمنًا مطمئنًا، ولكنك قد

تتعرض لاشتباكات جدلية إذا أبرزت آلة تصوير لا ترحم، فإنها قد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بأنك تخليت عن دور الضيف - وللضيف مكانته المقدسة فى الشرق - لتقوم بدور «البصاص» الذى يتصيد عجائب القارات كما يتصيد هاوى الفراشات أنواعها العجيبة وإن هذه الأمثلة التى تجمعها لعجائب السلوك الإنسانى ستعرضها على أصدقائك فى بيتك حين تعود إليه فى جو من التندر والسخرية، والسبب أن هؤلاء الناس أصحاب القلوب الطيبة قد بدأوا يعيشون فى مأساة انتباههم إلى أنهم متخلفون، وأن اعتماد كيانهم على الدروب الضيقة والمعيشة والعمل نشرًا تحت قبة السماء قد يعد من الوصمات. والطبقة الوسطى فى المجتمع هى التى غرزت فى أذهانهم هذا الخاطر أكثر مما غرزه الاجانب. وفى الحق أن خير نتاج مصر هو الذى ينبع من هذه الدروب الضيقة، فهنا حيوية هيهات أن يكون لها قرين، وحماس وتطلع، جديران بالإعجاب، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفوًا.

ولكن ليس كل أفراد الطبقة الوسطى ينظرون إلى

هـذا الطراز من المعيشـة نظرة ازدراء، فـالروائى نجيب محفوظ قد سجل بعناية قصوى مشاهدها فى روايته «بـين القصرين» وهى ثلاثية تتتبع الأجيال وتعكس حياة أولاد البلد فى أدق تفاصيلها، وكـذلك يـوسف شاهـين وهو من ألمع المخرجـين فى ميدان السينـما بمصر قـد صنع فيلمًا عن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتـدى الجلابيـة وجعل حوادث الفيلم تدور فى محطة باب الحديد بضجتها العالية وحواشيها الرثة الحظ.